

## مقدمة المحرر

كتب إريك فروم الكهل مخطوطاً كبيراً احتوى على فصول أكثر مما استخدمه في كتابه الذي نُشر عام 1976، كان ذلك ما بين عامي 1974 و1976 في منزله الكائن في لوكارنو في سويسرا، بينما كان يعمل على كتابه "التملك أم الكينونة" ( *To Have Or to Be?* ). وفي نهاية الأمر جمعَ الفصول الإضافية وضمَّنها في الكتاب الذي بين أيدينا الآن. حيث تناول بالكامل مسألة "الخطوات باتجاه الوجود" والتي يمكن للفرد أن يتخذها ليتعلم "فن الوجود".

سحبَ فروم الفصول المتعلقة بالـ "خطوات باتجاه الوجود" من المخطوط قبل فترة وجيزة من تنضيد كتاب "التملك أو الكينونة" إذ اعتقدَ أنه من الممكن أن يسيءَ القارئ فهم القصد من الكتاب ويتجه إلى البحث عن الشفاء الروحي في وعيه وتطوره وتحليله لذاته فحسب، دون تغيير الوقائع الاقتصادية التي تنتج عنها حالة التملك. وللبحث عن جذور ظاهرة النزوع الجماعية لـ "التملك"، وهي ظاهرة نموذجية في المجتمعات المرفهة والقادرة على امتلاك كل شيء، علينا العودة إلى الوقائع الاقتصادية والسياسية والاجتماعية للمجتمع الصناعي الحديث، وتحديدًا في تنظيمه للعمل وأساليبه الإنتاجية.

على الرغم من حقيقة أن ميولنا باتجاه التملك متأصلة في الوقائع البنوية للحضارة الصناعية المعاصرة، إلا أن التغلب على هذه الوقائع يتمثل في إعادة اكتشاف الفرد لقوته الذاتية النفسية والعقلية والجسدية، كما يتمثل في احتمالات تقرير مصيره بنفسه. ولهذا السبب فقد تم نشر هذه "الخطوات باتجاه الوجود" الآن، حيث ستكون هذه الخطوات هي الدليل إلى الوعي الذاتي الفعّال.

وبكل تأكيد فإن النزعات الحالية قد أوضحت بشكل قاطع أن وعي الفرد لنفسه وإدراكه ولتطوره وخلافه، يعني دائماً شيئاً مختلفاً عن تطوير قوى الفرد الذاتية. وبصورة عامة في يومنا هذا، فقد تعززت، وبكل بساطة، النرجسية الفردية المتضخمة، كما ترسخت حالات العجز عن إيجاد المنطق أو الحب (وهما تبعاً لفروم مواصفات النزوع باتجاه الوجود) كتقنيات للوعي الذاتي تقدّم دعائم جديدة من النزوع باتجاه التملك.

لا يعني الملخص التالي لبعض المعلومات التي تم عرضها من قبل في كتاب "التملك أو الكينونة؟"، أنه بديل عن الاطلاع على ذلك الكتاب، لكنه مجرد تذكير لمن قرأه بأهم الأفكار التي وردت فيه.

لقد فهم إيريش فروم خيارات التملك أو الكينونة على أنهما "حالتان أساسيتان من حالات الوجود أو شكلان مختلفان من النزوع باتجاه الذات والعالم، إنهما نمطان مختلفان من أنماط الشخصية حيث تحدد سيطرة إحداها على الشخصية كيفية تفكير الشخص عموماً أو كيفية شعوره أو تصرفاته". (التملك أو الكينونة؟ ص: 24) إذا استقصى الفرد كافة الوسائل الممكنة والمختلفة التي تمكّنه من تكييف حياته، فسيخلص عندئذٍ إلى هذه النتيجة: في النهاية، لا بد للفرد من أن يكيّف حياته إما باتجاه التملك أو باتجاه الكينونة.

## ماذا يعني أن يقوم شخص ما بتكثيف حياته بشكل كامل باتجاه التملك؟

كائناً من يكون ذلك الذي يقوم بتوجيه حياته إلى التملك، فهو يحسم مسألة ماهيته وماهية وجوده ومعنى حياته وأسلوبه في الحياة بناءً على ما يملكه، وما الذي بإمكانه أن يملكه، أو أن يملك المزيد منه. والآن، بوسعنا القول بأن كل شيء تقريباً أصبح قابلاً للتملك أو لرغبة التملك. الأشياء المادية بكافة أشكالها: بدءاً من المنزل والمال والأسهم والأعمال الفنية، وصولاً إلى الكتب والطوايع والعملات وأشياء أخرى يمكن أن تصنّف، بطريقة أو بأخرى، ضمن "شغف الهاوي".

كما يمكن أن يصبح الأشخاص مادة للتملك أو لرغبة التملك، ومن المؤكد أن الفرد لا يصرّح علناً بأنه يمتلك فرداً آخر، أو أنه يعتبر ذلك الفرد ملكية خاصة له، فهو أكثر "حذراً" بهذا الشأن، ويفضّل أن يقول إنه مهتم بالآخرين ومسؤول عنهم. لكن من الجلي أنه أياً يكن الفرد المسؤول عن الآخرين، فإن لديه الحق باتخاذ القرارات بدلاً عنهم. وهكذا فإن الأطفال والمعوقين والعجزة والمرضى وكل من يحتاج إلى رعاية يصبح مصادراً ومملوكاً من الآخر، كما يتم اعتباره كجزء من ذات الآخر، وليس ذاتاً مستقلة - ويا للهول! هل سيتعافى المريض؟ أو هل سيتمنى الطفل أن يتمكن من اتخاذ قراراته بنفسه؟ وهنا فإن حالة التملك واضحة للغاية.

وكان احتمال أن يصبح الآخرون "ملكياً" ليس كافياً، إلا أننا أيضاً مضمون على إدارة حيواتنا باتجاه الاستيلاء على، أو الحصول على، التأثير والاحترام، وإن كل ما يهمنا هو الحصول على التقدير، الصحة، الجمال والشباب، وعندما لا يعود ممكناً الحصول على أي من هذه الأشياء، فإننا نريد امتلاك "التجربة" أو "الذكريات" على أقل تقدير.

ويمكن الحصول على القناعات ذات الطبيعة السياسية الإيديولوجية والدينية والتعامل معها على أنها ممتلكات يتم الدفاع عنها بشراسة إلى حد إراقة الدماء. إن كل شيء متوقف على إذا كان الفرد يمتلك الحقيقة، أو كان محقاً.

من الممكن عملياً امتلاك أي شيء إذا كان الفرد قد كيّف أسلوبه في الحياة باتجاه التملك، لكن المشكلة لا تكمن في رغبة الفرد بامتلاك شيء ما أو عدم رغبته بذلك، بل تكمن فيما إذا كانت شخصية المرء قد تشكّلت باتجاه ما يمتلكه أو ما لا يمتلكه. فالنزعة باتجاه عدم الامتلاك هي نزعة تملكية أيضاً، وهنا لا يدعو فروم إلى الزهد، إذ أن النزوع باتجاه "الوجود" لا ينسجم تماماً مع النزوع باتجاه "اللا تملك"، بل إن السؤال الدائم يتعلق بما إذا كان التملك أو عدم التملك مرتبطين بثبات هدف الفرد في الحياة، وبثباته على هويته الذاتية. من الصعب دائماً التمييز فيما إذا كان المرء يملك شيئاً بأسلوب التملك أم بأسلوب الوجود أو، كما يقول فروم، فيما إذا كان المرء "يملك كما لو أنه لا يملك". ومع ذلك فإن كل شخص يمكنه اختبار نفسه بشكل سريع، وذلك بأن يسأل نفسه: ما الذي يجده ذا قيمة بالتحديد؟ هكذا سيكون فكرة عما سيحدث إذا ما أضع (أو أضععت) ما كان يراه هاماً وقيماً، وعما إذا كان سيفقد توازنه، وعما إذا كانت الحياة ستصبح غير ذات معنى. وإذا كان الفرد سيتوقف عن إحساسه بوعيه لذاته، أو بقيمة ذاته (ما هو جوهرى بالنسبة لذاته)، وإذا لم يعد للحياة والعمل أية قيمة، فإن المرء يقرر حياته وفقاً للنزوع باتجاه التملك: مثل الحصول على مهنة محترمة، أطفال مطيعين، علاقة جيدة، نظرة ثاقبة إلى الأمور، حجج أفضل في النقاشات، وهكذا دواليك.

إن الشخص الذي ينزع إلى التملك هو شخص يعتمد دائماً على العكازات أكثر من اعتماده على قدميه، فهذا المرء يستخدم وسيلة

خارجية للوجود، ولكي يكون ذاته التي يرغب بها (أو التي ترغب هي أن تكونها). إنه / إنها يكون نفسه / نفسها فقط بالقدر الذي يكون فيه هذا الشخص ممتلكاً لشيء ما. يحدد هذا الشخص وجوده كشيء وذلك تبعاً إلى ملكيته لشيء. إنه مملوك من قبل ذلك الشيء، وبالتالي فإن الدافع إلى امتلاك الأشياء يمتلكه.

في الوقت نفسه فإن تشبيه: "العكازات التي تحل محل أقدام الفرد" يوضح ما المقصود بالنزعة المختلفة للوجود، تماماً مثل المرء الذي يمتلك القدرة الجسدية لإدراك ذاته، هنا يمكننا استبدال إدراك الذات بالعكازات، وهكذا يمتلك الفرد القدرات النفسية ليعي ذاته أيضاً: القدرة على الحب، على الفهم، والقدرة على القيام بنشاط فعال. لكن من الممكن أيضاً للفرد أن يستبدل هذه القدرات الداخلية النفسية بالنزوع باتجاه التملك، مثلاً: القدرة على الحب والقدرة على الفهم والقدرة على القيام بنشاط فعال، والتي تعتمد على امتلاك أهداف التملك تلك التي ينزع الجواهر باتجاهها.

إن الحب والمنطق والنشاطات الفعالة هي قوى الفرد النفسية، وهي تنمو فقط بالدرجة التي تُمارس بها، ولا يمكن أن تُستهلك أو تُشترى أو تُمتلك مثل دوافع التملك، لكن يمكن أن تُمارَس وتُزاول ويُغامر بها وتُنجز. وعلى العكس من دوافع التملك، والتي يمكن استهلاكها بحسب ما يتوافر منها، فإن الحب والمنطق والنشاطات الفعالة تنمو وتتزايد عندما تُستخدم وتتم مشاركتها مع الآخرين.

إن النزوع باتجاه الوجود يعني دائماً أن هدف المرء في الحياة ينحو إلى قوى المرء النفسية، حيث يدرك المرء، ويطلع على، ويستوعب حقيقة أن ما هو مجهول وغريب في ذاته، وفي العالم الخارجي، هو مجرد خصائص

لذاته. وبمعرفة هذه، فإن المرء يحصل على علاقة أعظم وأكثر شمولية مع نفسه ومع محيطه.

في كتابه "التملك أو الكينونة؟" انتقل فروم من ملاحظة أن النزعات الحالية باتجاه التملك هي ظاهرة جمعية تأسست ضمن الحقائق الاجتماعية والاقتصادية لمجتمع يمتلك الكثير ويمكنه، كنتيجة لذلك، أن يخضع إلى إغراء إطلاق العنان لنفسه ليكون معرفاً بصفة الامتلاك. يمكن إيجاد النقص الهائل لقوى الفرد النفسية في الوقائع البنوية لاقتصاديات عصرنا، وفي منظمات العمل المعاصرة، وفي الحياة الاجتماعية المعاصرة.

إذا كانت جذور تطور الفرد الحتمي موجودة أساساً في الاقتصاد السيكولوجي وتعرف الكثير عن الأفراد في الوقت الحالي، فهي إذن صالحة للاستمرار على أساس تلك الجذور، وفهم الفرد على أنه كان على الدوام كائناً اجتماعياً. ولهذا السبب استبدل فروم فصل "خطوات باتجاه الوجود" باقتراحات للقيام بتغيير بنيوي. ولهذا السبب فإن تحويل جهود الفرد من النزوع باتجاه التملك إلى النزوع باتجاه الوجود، يصبح منطقياً فقط إذا غيرت تلك الجهود في الوقت نفسه من حالة الفرد. يجب تغيير القيم الموجهة لأسلوب الفرد الذاتي الاقتصادي - المجتمعي، سواء في النشاط المهني، أو في مكان عمل المرء، أو في إدراكه الذاتي السياسي والمجتمعي، وذلك ليتمكن من تجربة قواه النفسية الذاتية بأصالة، بما في ذلك قوى المنطق والحب والأنشطة الفعالة، وبالتالي يمكن لهذه القوى أن تنمو وتتعاظم عن طريق استخدامها.

تنسجم محاولتنا للوصول إلى إدراك ذاتنا وتطويرها ورؤيتنا لأنفسنا ولعالمنا مع الحقيقة الداخلية والخارجية، وترتبط بتحررنا من أسلوب حياتنا الاقتصادي - المجتمعي. وهذا تماماً ما تحدث عنه فروم في كتابه

”التمكُّ أو الكينونة“: ”يمكن لخارطة الطريق أن تنسجم مع الواقع فقط إلى الحد الذي تتحرر فيه ممارسة الحياة من تناقضاتها ولا عقلايتها“.

في هذا الكتاب يبيِّن إيريش فروم أولاً السبل المزيقة لإدراك الذات، تماماً كما قام بتعريفها وتحديدها منذ سنوات خلت، بأساليبها الواعظة. لكنه اقترح بعد ذلك طرقاً لتحقيق إدراك الذات كما أنه شاركنا بخطوات باتجاه الوجود قام شخصياً بممارستها يومياً، مانحاً اهتماماً لتحليل الذات كنوع من التطبيق العملي للتحليل النفسي.

وحيث أن فروم لم يعد هذا العمل، والذي يتوافر للمرة الأولى، لينشر، فقد كان هنالك حاجة لبعض الإضافات على الأقسام وتنظيم النص وكذلك على عناوين الفصول.

راينر فنك

توبينغين (ألمانيا)، 1992

(ترجمة لانس ديليو غارنر)